



أشهر المفتين من أهل اليمن



obeikandi.com

• ومن أهل اليمن:

- طاووس بن كيسان الجندى - رضى الله عنه -

كان طاووس بن كيسان من أهل "اليمن" .. سمع من زيد بن ثابت وعائشة وأبا هريرة وغيرهم وكان رأساً في العلم والعمل، وقد قال قيس بن سعيد: كان طاووس فينا مثل ابن سيرين في أهل البصرة، وقال الذهبي: كان طاووس شيخ أهل اليمن وبركتهم وفقههم له جلالة عظيمة وكان كثير الحج.

كانت الولاية في "اليمن" إذ ذاك لمحمد بن يوسف النخعي أخى الحجاج بن يوسف، وكان طاووس مثله مثل الفقهاء الصالحين شديد الخلاف معه لأنه كان صاحب رأى ومبدأ.

وكانما أراد محمد بن يوسف أن يرد لطاووس الحجر من حيث جاء، فنصب له شركاً من شراكه.. حيث أعد صرة فيها سبعمائة دينار ذهباً.. واختار رجلاً حاذقاً من رجال حاشيته وقال له:

امض بهذه الصرة إلى طاووس بن كيسان، واحتل عليه فى أخذها.. فإن أخذها منك أجزلت عطيتك.. وكسوتك، وقربتك.

فخرج الرجل بالصرة، حتى أتى طاووساً فى قرية كان يقيم بها بالقرب من "صنعاء" يقال لها "الجند".

فلما صار عنده حياه، وأنسه، وقال له: يا أبا عبد الرحمن، هذه نفقة بعث بها الأمير إليك.

فقال: مالى بها من حاجة.

فاحتال عليه بكل طريق ليقبلها، فأبى... وأدلى له بكل حجة، فرفض.

فما كان منه إلا أن اغتيم غفلة من طاووس... ورمى بالصرة فى كوة كانت بجدار البيت، وعاد راجعاً إلى الأمير وقال: لقد أخذ طاووس الصرة أيها الأمير.

فسر لذلك محمد بن يوسف، وسكت عليه.

فلما مضت على ذلك أيام عدة، أرسل اثنين من أعوانه، ومعهما الرجل الذى حمل إليه الصرة، وأمرهما أن يقولوا له:

إن رسول الأمير قد أخطأ فدفع إليك المال، وهو مرسل لغيرك.. وقد أتينا لنسترده منك، ونحملة إلى صاحبه.

فقال طاووس: ما أخذت من مال الأمير شيئاً حتى أردته إليه.
فقالا: بل أخذته.

فالتفت إلى الرجل الذى حمل إليه الصرة، وقال له: هل أخذت منك شيئاً؟! فأصاب الرجل الذعر^(١) وقال: كلا.. وإنما وضعت المال فى هذه الكوة فى غفلة منك.

فقال طاووس: دونكما الكوة، فانظرا فيها.

فنظرا فى الكوة، فوجدوا فيها الصرة كما هى، وقد ضرب عليها العنكبوت بنسجه.. فأخذاهما، وعادا بها إلى الأمير.

وكانما أراد الله عز وجل أن يقتص من محمد بن يوسف على فعلته هذه، وأن يجعل قصاصه منه على مرأى من الناس ومشهد.. فكيف وقع ذلك؟!.

ولما ولى عمر بن عبد العزيز الخلافة، بعث إلى طاووس بن كيسان يقول: أوصنى يا أبا عبد الرحمن.

فكتب إليه طاووس رسالة فى سطر واحد قال فيها: "إذا أردت أن يكون عمك خيراً كله، فاستعمل أهل الخير، والسلام".

فلما قرأ عمر الرسالة قال: كفى بها موعظة.. كفى بها موعظة.

ولما آلت الخلافة إلى هشام بن عبد الملك كانت لطاووس بن كيسان معه مواقف مشهورة مأثورة^(٢).

من ذلك أن هشاماً قدم البيت الحرام حاجاً.. فلما صار فى الحرم، قال لخاصته من أهل مكة: التمسوا^(٣) لنا رجلاً من صحابة الرسول ﷺ.

فقالوا له: إن الصحابة يا أمير المؤمنين قد تلاحقوا بربهم واحداً إثر^(٤) آخر حتى لم يبق منهم أحد.

فقال: إذن، فمن التابعين.. فأتى بطاووس بن كيسان.

(٢) مأثورة: مروية معروفة.

(٤) إثر: بعد.

(١) الذعر: الخوف والقلق.

(٣) التمسوا: ابحثوا.

فلما دخل عليه، خلع نعليه بحاشية بساطه.. وسلم عليه من غير أن يدعوه بأمرير المؤمنين.. وخاطبه باسمه دون أن يكنيه.. وجلس قبل أن يأذن له بالجلوس.. فاستشاط^(١) هشام غضبا حتى بدا الغيظ في عينيه.

ذلك أنه رأى في تصرفاته تلك اجترأ عليه، ونيلاً من هيئته أمام جلسائه، ورجال حاشيته.. بيد أنه ما لبث أن تذكر أنه في حرم الله عز وجل.. فرجع إلى نفسه وقال لطاووس:

ما حملك يا طاووس على ما صنعت؟!.

فقال: وما الذي صنعته؟!.

فعاد إلى الخليفة غضبه وغيظه، وقال: خلعت نعليك بحاشية بساطي.. ولم تسلم على بإمرة^(٢) المؤمنين.. وسميتني باسمي، ولم تكنني.. ثم جلست من غير إذني.. فقال طاووس بهدوء:

أما خلع نعلي بحاشية بساطك، فأنا أخلعهما بين يدي رب العزة كل يوم خمس مرات.. فلا يعاتبني، ولا يغضب علي..

وأما قولك أني لم أسلم عليك بإمرة المؤمنين.. فلأن جميع المؤمنين ليسوا راضين بإمرتك.. وقد خشيت أن أكون كاذبا إذا دعوتك بأمرير المؤمنين.. وأما ما أخذته علي من أني ناديتك باسمك، ولم أكنك.. فإن الله عز وجل نادى أنبياءه بأسمائهم، فقال:

يا داود.. يا يحيى.. يا عيسى.. وكنى أعداءه فقال: ﴿تَبَّتْ (٣) يَدَا أَبِي لَهَبٍ (٤) وَتَبَّ﴾^(٥). وأما قولك إنني جلست قبل أن تأذن لي.. فإني سمعت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب يقول:

" إذا أردت أن تنظر إلى رجل من أهل النار فانظر إلى رجل جالس، وحوله قوم قيام بين يديه".

فكرهت أن تكون ذلك الرجل الذي عد من أهل النار.. فأطرق هشام إلى الأرض خجلا.. ثم رفع رأسه وقال: عظني يا أبا عبد الرحمن.. فأخذ طاووس يعظه بكل سماحة وإخلاص.

(١) استشاط: اشتعل.

(٢) إمرة المؤمنين: الخلافة.

(٣) تبَّت: خسرت.

(٤) أبو لهب: عم الرسول ﷺ، وأحد عتاة المشركين، أذى النبي أشد الإيذاء هو وزوجته.

(٥) سورة المسد الآية ١.

ولم يكن طاووس بن كيسان يخص الخلفاء والولاة بمواعظه، وإنما بذلها لكل من أنس^(١) به حاجة إليها أو رغبة فيها.

من ذلك ما رواه عطاء بن أبي رباح قال:

رأى طاووس بن كيسان في موقف لم يرتح له، فقال:

يا عطاء، إياك أن ترفع حوائجك إلى من أغلق في وجهك بابيه.. وأقام دونك حجابيه^(٢).. وإنما اطلبها ممن أشرع^(٣) لك أبوابه.. وطالبك بأن تدعوه.. ووعدك بالإجابة.

وكان يقول لابنه: يا بني، صاحب العقلاء تتسب إليهم، وإن لم تكن منهم.. ولا تصاحب الجهال، فإنك إن صحبتهم نسبت إليهم وإن لم تكن منهم.. واعلم أن لكل شيء غاية.. وأن غاية المرء تمام دينه، وكمال خلقه.

وقد نشأ ابنه عبد الله على ما رباه عليه أبوه، وتخلق بأخلاقه، وسار بسيرته.. من ذلك أن الخليفة العباسي أبا جعفر المنصور استدعى ولده عبد الله ابن طاووس، ومالك بن أنس^(٤) لزيارته، فلما دخلا عليه، وأخذا مجلسيهما عنده، التقت الخليفة إلى عبد الله بن طاووس وقال:

ارو لي شيئاً مما كان يحدثك به أبوك.

فقال: "حدثني أبي أن أشد الناس عذاباً يوم القيامة رجل أشركه^(٥) الله عز وجل في سلطانه، فأدخل الجور في حكمه".

قال مالك بن أنس: فلما سمعت مقالته هذه، ضمنت على ثيابي خوفاً من أن يصيبني شيء من دمه... بيد أن أبا جعفر أمسك ساعة لا يتكلم.

ثم صرفنا بسلام.

وقد امتدت الحياة بطاووس بن كيسان حتى بلغ المائة، أو جاوزها قليلاً.. غير أن الكبر والشيخوخة لم ينالا شيئاً من صفاء ذهنه، ووحدة خاطره، وسرعة بديهته.

(١) أنس: شعر. (٢) حجابيه: الواقفين على بابيه من عماله وجنده.

(٣) أشرع أبوابه: فتحها على مصاريعها.

(٤) مالك بن أنس: هو أحد تابعي التابعين، وعلم من أعلام المسلمين، وصاحب مذهب مالك.

(٥) أشركه في سلطانه: ولاه أمراً من أمور المسلمين.

وفي ليلة العاشر من ذي الحجة سنة ست ومائة، أفاض الشيخ المعمر طاووس ابن كيسان مع الحجيج من "عرفات" إلى "المزدلفة" للمرة الأربعين.

فلما حط رحاله في رحابها الطاهرة، وأدى المغرب مع العشاء... وأسلم جنبه إلى الأرض، يلتمس شيئاً من الراحة... أتاه اليقين... فلقبه بعيداً عن الأهل والوطن، تقرباً لله... خارجاً من ذنوبه كما ولدته أمه، بفضل الله.

فلما طلع عليه الصبح، وأرادوا دفنه... لم يتمكنوا من إخراج جنازته لكثرة ما ازدحم عليها من الناس.

فوجه إليهم أمير مكة حرساً ليذودوا^(١) الناس عن الجنازة حتى يتاح^(٢) لهم دفنها... وقد صلى عليه خلق كثير لا يحصى عددهم إلا الله... وكان في جملة المصلين خليفة المسلمين... هشام بن عبد الملك.

رحم الله "طاووس" الذي كان كثير الحج فوافته المنية أثناء وجوده بمكة سنة ١٠٦ هـ.. رحمه الله رحمة واسعة فقد كان رأساً في العلم والعمل.

* * *

(٢) يتاح لهم: يسهل لهم.

(١) ليذودوا: ليدفعوا.

